مفهوم الشعر عند قدامة في ميزان النقاد المحدثين

مبارك الأشهب
طالب باحث في سلك الدكتوراه
مختبر تحليل الخطاب وأنساق المعارف
تحت إشراف: الرحالي الرضواني
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض مراكش
المغرب

عرفنا من خلال دراستنا لمتون النقد القديم، أن أول تعريف وضع للشعر في النقد العربي هو تعريف قدامة بن جعفر، الذي يقول فيه: { أن الشعر العربي قول موزون مقفى يدل على معنى } وقد عرض قدامة هذا التعريف في كتابه " نقد الشعر " الذي ألفه على طريقة الفلاسفة. فكان محاولة واسعة المدى لتنظيم علم الشعر تنظيما أشبه بالعلوم العقلية.[1]

لقد أثار هذا التعريف للشعر عند قدامى فضول العديد من الدارسين المحدثين، وأسال الكثير من مداد أقلامهم، فإحسان عباس يرى بأن قدامة مدين للتأثير الأرسطي في وضع هذا الشعر، يقول في هذا الصدد: **[ومنذ البداية يبدو قدامة متأثرا بالمنطق الأرسطاليسي، متجاوزا المفهوم اليوناني للشعر، في آن معا. فهو في حده للشعر، وفي حرصه على أن يكون ذلك الحد مكونا من جنس وفصل يدل على أنه يترسم ثقافته المنطقية، "الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى" فكلمة قول: بمنزلة الجنس، وموزون فصل له عما ليس بموزون، ومقفى فصل عما هو موزون ولا قوافي له، ودال على معنى فصل له يكون موزونا مقفى ولا يدل على معنى. غير أن وضعه (المقفى) صفة فاصلة للشعر تدل على أنه يؤثر أن يستقل بحديثه عن الشعر العربي، وأنه لا يحتاط كما احتاط الفارابي من بعد بقوله: " إن للعرب من العناية بنهايات الأبيات التي في الشعر أكثر مما لكثير من الأمم الي عرفنا أشعارهم"، ولا يحتاط شأن ابن سينا حين قال: " الشعر هو كلام مخيل مؤلف من أقوال موزونة متساوية وعند العرب مقفاة". وقد كان هذا التعريف مورطا لقدامة على الصعيد المنطقي، لأن القافية لا تعدو أن تكون لفظة فهي جزء من (القول) أو ركن من (اللفظ) أي هي داخلة في (اللفظ) وفي (المعنى) وفي (الوزن)، فإفرادها خروج على المنطق، ولذا فإن قدامة وقع في حيرة من أمرها، حين أراد أن يستكشف ائتلافها مع هذه العناصر، لأنها ليست وحدة قائمة بذاتها، ثم وجد ـ على سبيل التسامح ـ أنها يمكن أن تقع مؤتلفة مع المعنى. ومن ثم يتجه الحديث في الشعر إلى عناصره البسيطة (اللفظ . المعنى . الوزن . القافية) ثم يتجه إلى المركبات (اللفظ والمعنى ـ اللفظ والوزن ـ المعنى والوزن ـ المعنى والقافية) فهذه ثماني وحدات: قسمة منطقية (أسعف فيها شيء من التساهل في أمر القافية) إلا أنها يجب أن تعتمد أساسا ثنائيا، لأن كلا من العناصر البسيطة والمركبة قد يكون جيدا وقد يكون رديئا، ولهذا كانت هذه الوحدات في حالتي الايجاب والسلب ست عشرة.][2]**

أما الناقد عباس ارحيلة، فقد أقر أن قدامة اشتهر بالمنطق، وتأثر به أسلوبه وتفكيره. وكان ينتمي في تكوينه إلى نخبة خاصة من رجال الفكر كانت تتطلع إلى الاستفادة من الحركة العقلية في عصرها. قد كان قدامة حاضرا في المناظرة التي دارت بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس المنطقي سنة 326، وهي مناظرة تكشف ما بلغه المنطق من نفوذ وتأثير على العقول في مطالع القرن الرابع الهجري. وذكر ابن النديم لقدامة كتابا في " صناعة الجدل". وظل كتاب " نقد الشعر " شاهدا على تأثر صاحبه بالمنطق، حتى

اعتبره النقاد المحدثين أول محاولة عملية لتطبيق أصول لمنطق على الشعر العربي، وكأنه محاولة من قدامة ليضع ما يمكن أن نسميه "منطق الشعر"، فقد وضع في كتابه هذا خطة علمية في ضوء منهجية تقوم على تعريف مفهوم الشعر وتحديده وحصر عناصره.

ولما كانت وظيفة المنطق هي التمييز، وكانت مهمة النقد، التمييز كذلك، استعارة قدامة الأداة المنطقية باعتبارها آلة مجردة تسعى في أن تعصم الفكر من الخطأ والفوضى في الأحكام. وأول ما يتناوله المنطق التصورات، أي الأفكار التي يعبر عنها في اللغة بالألفاظ، وفي المنطق بالحدودن أي العناصر التي تتكون منها القضية المنطقية[3]

على غرار إحسان عباس يتبنى أرحيلة فكرة تأثر قدامة بالمنطق الأرسطي في تعريفه للشعر، وقد بين ذلك من خلال هذا التحليل.

حد الإنسان	الإنسان	حيوان	ناطق	ضاحك	يمشي على قدمين
حد الشعر	الشعر	قول	موزون	مقفى	يدل على معنى
الكليات	نوع	جنس	فصل	خاصة	عرض عام

الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام هي الكليات الخمس التي أتى بها فورفوريوس أحد شراح أرسطو. وهي موضوع الحد الذي يثير في الذهن صورة معينة ويحدد خصائص شيء يتميز بها عن غيره. ولما كان المنطق يعنى بتوضيح الأفكار وتحديد التصورات، فإن هذه الكليات تساعد على ضبط المفاهيم، أي تبيين خصائص الموجودات وما بينها من فروق وتمايزات.[4]

ويستمر الأستاذ عباس ارحيلة في البحث عن تناص تعريف قدامة للشعر مع المنطق الأرسطي بالقول[**فالحيوان جنس مطلق على جميع أنواع الأحياء، والشعر " قول دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشعر". فالقول جنس يعم جميع أنواع القول. والشعر نوع منه يندرج تحته، كما أن الإنسان نوع من جنس الحيوان. والوزن صفة جوهرية تميز الشعر عن باقي أجناس القول الأخرى. فكونه موزونا " يفصله مما ليس بموزون ". وبالنطق يتميز الإنسان عن باقي الحيوانات، فيفضل ويختلف.**

والشعر يكون مقفى ويدل على معنى ـ وهما فصلان يميزان القول الشعري عن الأقوال التي لا قوافي فيها ولم يتوفر لها معنى، وإن حازت الوزن والقافية.

وبهذا أخذ قدامة من الكليات الخمس، ثلاثا، وهي الصفات الجوهرية الذاتية: الجنس والنوع والفصل، وإذ كان يبحث عما هو جوهري في الشعر، أي "معرفة حد الشعر المائز له عما ليس بشعر"][5]

لقد انطلق قدامة من شرح الحد على طريقة المناطقة لضبط الظاهرة الشعرية، حتى تكون مكوناتها معلومة تمام العلم، ولكن ذلك لا يعني أن مضمون تعريف قدامة له علاقة بالشعر الذي تحدث عنه أرسطو، وقد بين ذلك الأستاذ عباس ارحيلة، حين قال: [**مضمون تعريف قدامة لا علاقة له بالشعر الذي يتناوله أرسطو، إذ كان أهم عنصر في تعريف الشعر عند اليونان هو "المحاكاة". فمن أين استقى قدامة هذا التعريف؟ لقد استقاه من أحاديث النقاد العرب السابقين في تناولهم لقضايا اللفظ والمعنى و الوزن و القافية، فلم يكن قدامة أول من تنبه إلى هذه العناصر. فابن سلام تنبه إلى أهمية الوزن والقافية... والشعر عند ابن طباطبا 323هـ "كلام منظوم، بائن عن المنثور... ونظمه معلوم محدود" والشاعر إذا أراد " بناء قصيدة مخض المعنى و أعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، في القوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه" فما كان**

من قدامة إلا أن جمع هذه العناصر المتناثرة في أحاديث السابقين وأدرجها في عبارة واحدة، ظلت ملازمة للنقد العربي القديم إلى مطالع هذا القرن][6]

أراد قدامة أن يضع أسسا علمية تعين الناقد الأدبي على مباشرة عمله النقدي، بكيفية منهجية، تقطع مع فوضى النقد الانطباعي التأثري اللحظي، فعل ذلك بكل وعي ومسؤولية، وبدقة متناهية، إنه استفاد من ثقافة الآخرين، وفي مقدمتهم أرسطو، ولكن هذا لا يعني تبعيته بصفة كلية للفكر الأريسطي، تبعية تجعل منه مجرد ناقل، وتبخسه حقه، يقول أرحيلة في هذا الصدد:**[إن حد قدامة رسخ الوزن والقافية في القصيدة العربية. فقد استفاد من الأداة المنهجية في قراءة تراث ينتمي إليه. فحديث أرسطو عن الشعر غريب في واقع قدامة التاريخي، أجنبي عن وعي المثقف العربي آن ذاك، وعن قناعاته واهتماماته. إن من يبحث عن تجليات التأثير في قدامة، ويستبعد الذات القارئة في شروطها الموضوعية، ويتجاهل طرق توظيف تجليات التأثير في المتلقي، فيخرج قدامة من الصيرورة التاريخية، ويهمل تفاعل الثقافات حين تتسرب عبر قنوات معقدة. إن من يقارن ليجد الأصل اليوناني، يزيف التاريخ ويعبد المركز الأوربي، ويجعل تاريخ المعرفة بعد الأصل تابعا ومرددا لما قيل.][7]**

استمر تعريف قدامة للشعر في إثارة القيل والقال بين النقاد المحدثين، فهذا الدكتور أمجد الطرابلسي، يتحدث عن هذا التعريف ويشرح بعض حيثياته، وهو بصدد دفع التحامل على قدامة، الذي اتهمه البعض، بأنه اختصر الشعر في قوانين ومعايير جافة، لم تقم أدنى اعتبار للجانب الفني في الشعر، فرغم أن أمجد يقر بشكلانية التعريف الذي جاء به قدامة بن جعفر، فإنه رفض فكرة إهماله للجانب الفني في تعريفه للشعر: يقول أمجد الطرابلسي في هذا السياق**[إن مفهوم الشعر عند النقاد القدامى كان نابعا من تصور واقعي و ملموس شبيه بالتصور الذي تكون لديهم عن الشاعر. وأبرز ما نعثر عليه من ذلك، تعريف قدامة بن جعفر للشعر بأنه:" كلام موزون ومقفى يدل على معنى".**

وقد يبدو لأول وهلة أنه تعريف شكلاني مجرد، من الممكن أن ندخل ضمنه متون النحو والعروض والفيزياء. ولكن في ذلك ظلما وتحاملا على ناقد ذكي ومتميز، لا نعتقد أن هذا الأمر قد غاب عنه، فرضي بكل كلام موزون واعتبره شعرا.

ولعل في انتقاله من حد التعريف الذي قدمه للشعر، إلى التطبيق، مل يثبت بعض ما نذهب إليه، من أن تصوره للمعنى الشعري كان تصورا فنيا دقيقا، إذ نجده مرتبطا، فيما يخص هذا المعنى، بمضامين شعرية صميمية وموضوعات فنية صرف. ولذلك فإننا لا نؤاخذه إلا على عدم كفاية تعريفه. وهو أمر يمكن مجاوزته بتأويل هذا التعريف تأويلا إيجابيا حسنا فنقول: " إن الشعر كلام موزون مقفى يدل على معنى محدد"، وفي " نقد النثر" المنسوب خطأ لقدامة، تعريف للشعر، أكثر شمولا ودقة، من حيث الفهم والتصور. فقد جاء فيه أن الشاعر " سمي شاعرا لأنه يشعر من معاني القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره. وإذا كان إنما يستحق اسم الشاعر بما ذكرنا، فكل من كان خارجا عن هذا الوصف فليس بشاعر، و إنما أتى بكلام موزون ومقفى".

إن الفرق كبير و واضح كما نلاحظ، بين هذا التصور، وبين التعريف الشكلاني الذي قدمه قدامة للشعر. ولذلك فإنه من المستبعد أن يكون التصوران معا لشخص واحد.][8]

الهوامش:

[1] د عباس أرحيلة، البحوث الإعجازية والنقد الأدبي إلى نهاية القرن الرابع ، ط 1997.

[2] إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني إلى القرن الثامن الهجري، ط أ 1971.

[3] عباس أرحيلة ، الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين، ص404. 405.

[4] نفسه ص، 105.

[5] نفسه، ص،406.

[6] نفسه، ص، 406 . 407 .

[7] نفسه، ص، '407

[8] أمجد الطرابلسي، نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة، ت إدريس بالمليح، ص، 116. 117